التغيير الحضاري في منظور رجاء غارودي

د. الشريف طوطاو .

جامعة خنشلة

مقدمة

لقد كان دخول "روجيه غارودي"(2012/1913) الإسلام منذ ثمانينيات القرن الماضي(1982) حدثا فكريا وإعلاميا كبيرا، كيف لا؟ وهو الفيلسوف والمنظر الغربي والسياسي الماركسي الذي شغل الرأي العام الغربي بأطروحاته المدوية المثيرة للجدل، ويمكننا أن نقرأ في هذه الانعطافة الفكرية الكبرى في حياة الرجل وفكره عدة دلالات، لعل أهمها:

* أن هذا التحول مؤشر على الأزمة الحضارية التي يعيشها الغرب والتي جعلت العديد من العلماء والمفكرين على غرار مراد هوفمان، موريس بوكاي، وآخرون يبحثون عن ملاذ آخر يجدون فيه الأبعاد المفقودة في النموذج الحضاري الغربي.

* أن الإسلام يمكن أن يكون البديل الحضاري الأمثل للنموذج الحضاري الغربي المأزوم، بفضل ما يحمله الإسلام من أبعاد حضارية وطاقات روحية وأخلاقية وإنسانية، إذا ما تم فهم الإسلام فهما صحيحا.

وفعلا، فقد كرس غارودي جل كتاباته وأبحاثه ونشاطاته الفكرية منذ دخوله الإسلام لهذا الموضوع، أي الكشف عن مظاهر التأزم والإفلاس في النموذج الحضاري الغربي، من جهة، والإمكانات التي يمكن للإسلام أن يقدمها من أجل تحقيق التغيير الحضاري المنشود الذي من شأنه أن يقود ليس المسلمين فقط بل الإنسانية قاطبة (بالنظر إلى الرسالة الكونية للإسلام) نحو بر الأمان، أي نحو السعادة والاستقرار والتنمية الحقيقية القائمة على التوازن بين الحياة المادية والحياة الروحية.

لقد تجلت رؤية غارودي هذه إلى التغيير الحضاري من خلال العديد من مؤلفاته، منها على الخصوص: وعود الإسلام، الإسلام دين المستقبل، الإسلام،...إلخ.

وفي هذه الورقة البحثية سوف نحاول الوقوف عند أهم نصوصه الأساسية التي لها صلة مباشرة بموضوع الملتقى، للإجابة على جملة من التساؤلات، أهمها:

. ما هي رؤية غارودي للتغيير الحضاري؟

وتندرج تحت هذا السؤال المحوري جملة من التساؤلات الفرعية هي:

. ما هي مبررات التغيير الحضاري عنده؟

. ما هي ملامح التغيير الحضاري عنده؟ وما أبعاده؟

. ما دور الإسلام في التغيير الحضاري المنشود؟

. وأخيرا، أين يتموقع غارودي داخل اتجاهات التغيير الحضاري؟

1. مبررات التغيير الحضاري عند غارودي

. أزمة النموذج الحضاري الغربي

ينطلق غارودي في نظرته إلى التغيير الحضاري من مسلمة أساسية وهي أن الحضارة المعاصرة تمر بأزمة خطيرة جدا مصدرها الحضارة الغربية، باعتبار أن هذه الأخيرة أصبحت اليوم تهيمن على جميع الحضارات وتفرض نموذجها على العالم كله، وهكذا، فإن عولمة النموذج الحضاري الغربي أدت إلى عولمة مشكلات هذه الحضارة وأمراضها وأزماتها.

لقد قام غارودي بتحليل نقدي للحضارة الغربية، وتبين له أن هذه الحضارة تعاني من أزمة متعددة الأبعاد: اقتصادية، سياسية، اجتماعية، ثقافية، دينية، أخلاقية وروحية،...الخ. وبحسبه، فإن هذه الأزمة بلغت من الخطورة حدا لا يطاق، فالإنسان المعاصر أصبح مهددا في حياته ومصيره بسبب إفلاس النموذج الحضاري الغربي الذي جعل كوكبنا مهددا بالانتحار، وهو ما يعبر عنه ب "الانتحار الكوكبي"، وما الأزمة الأيكولوجية (الاحتباس الحراري،...)، وانتشار أسلحة الدمار الشامل، والفقر والجوع، وغير ذلك، إلا مؤشرات على هذا الانتحار الكوكبي، وهو ما يؤكده غارودي في تشخيصه لأزمة النموذج الحضاري الغربي، إذ يقول: "منذ خمسة قرون والغرب يسيطر على العالم دون أن يواجه أي تحد، وكان الإفلاس نتيجة هذه الهيمنة. ففي العام الماضي وحده [أنظر سنة المؤتمر]، تم إنفاق سبع مائة بليون دولار على الأسلحة (في الغرب، يعد كل واحد من خمسة أفراد يعملون لصالح الحرب على نحو مباشر أو غير مباشر، بدءا بالباحثين العلماء وانتهاء بصغار العمال). فنجم عن ذلك أن ما يسمى بالدول المتطورة قد قامت . حتى الآن . بتكديس قنابل يعادل تدميرها مليون مرة ما فعلته قنبلة "هيروشيما"...وفي العام نفسه مات جوعا أو بسبب سوء في التغذية ثمانون مليون نسمة في مختلف أنحاء العالم. ولا يمكن تصور إدارة لكوكبنا هذا وللجهد البشري فيه أكثر شؤما من هذه الإدارة (التي تهيمن عليه)" غارودي، البديل هو الإسلام، ضمن مؤتمر القمة الإسلامي الخامس، حول: الإسلام والمستقبل، الكويت، 1987، ص 121.

ويستخدم غارودي عبارة "انتحار" في حديثه عن مصير الحضارة المعاصرة، للدلالة على أن أزمة الحضارة الغربية وانهيارها لم يحدث بفعل عوامل خارجية كالاستعمار أو الظروف الطبيعية أو غيرها من العوامل التي أدت إلى أفول غيرها من الحضارات، وإنما مرده إلى عوامل داخلية تتعلق بطبيعة النموذج الحضاري الغربي، أي أن الأزمة تتعلق بنموذج معين في التنمية والتحديث.

والواقع أن فكرة انتحار الغرب قد أكدها العديد من فلاسفة التاريخ والحضارة على غرار أرنولد توينبي(أنظر: محمود صبحي، في فلسفة التاريخ)، غير أن أسباب هذا الانتحار وتفسيره تختلف من مفكر لآخر. كما أن أكثر من مفكر وفيلسوف غربي قد عبر عن تشاؤمه بمستقبل الحضارة الغربية، بل تنبأ بسقوطها وأفولها إذا لم تتراجع عن خط سيرها المدمر، ومن هؤلاء شبنجلر في كتابه "أفول الحضارة الغربية" وغيره كثير.

فما هي ياترى بواعث هذا الانتحار وأسبابه بالنسبة لغارودي؟

إن أزمة الحضارة الغربية مردها في نظر غارودي، إلى طبيعة النموذج الذي اختاره الغرب للنمو والتحديث منذ عصر النهضة، فهذا النموذج يبتعد عن الدين، دين التوحيد الصحيح، الذي أحل الغرب محله ديانة جديدة هي "ديانة عبادة الوسائل"، التي تحولت فيها الوسائل إلى غايات، فالغرب لم يعد يبحث عن الغايات الأخيرة من خلال طرح

السؤال: لماذا؟ وإنما اهتم بالسؤال: كيف؟: كيف أحصل على الثروة؟ كيف أشبع لذاتي ومنافعي؟ كيف أتطور؟ كيف أسيطر؟ كيف أملك السلطة؟

وهكذا، حلت آلهة جديدة، آلهة مزيفة أصبح الإنسان يعبدها ويضحي من أجلها ويقدم نفسه قربانا لها دون التفكير في عواقب ذلك، وبهذا أصبحت هذه الحضارة حضارة إلحادية لا تقيم وزنا للقيم الدينية والأخلاقية، بل أكثر من ذلك فهي حضارة تقوم على الشرك لأنها تقوم على عبادة مجموعة من الآلهة الزائفة التي أصبحت معبودة الإنسان الغربي المعاصر، والشرك يقود إلى الفساد واللامعنى، كما يقول غارودي، مستدلا بقوله تعالى: "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا"(الأنبياء: 21)، فالتوحيد هو أساس النظام والتوازن والاستقرار، وأما الشرك فهو مصدر الفساد والانهيار، يقول غارودي مؤكدا هذه الحقيقة: "والسبب الأساس لهذا التخاذل الانتحاري أنه خلال القرون الخمسة المنصرمة لم تعد الحضارة الغربية إلحادية وحسب، بل أصبحت تتصف بالشرك، فالنمو، والجنس، والعنف، والمال، والقومية، غدت غايات بذاتها. وبتعبير آخر، أصبحت آلهة مزيفة لها" البديل هو الإسلام، ضمن مؤتمر القمة الإسلامي الخامس، حول: الإسلام والمستقبل، الكويت، 1987، ص 121.

وبحسب غارودي فإن "هنالك ثلاثة آلهة مزيفة تسكن ليلنا خفية، وهي التي تحدث . بل ترتكب . هذا الفساد والتضليل، وهي: النمو الاقتصادي، القومية، الفلسفة العلمية الوضعية". غارودي، البديل هو الإسلام، ضمن مؤتمر القمة الإسلامي الخامس، حول: الإسلام والمستقبل، الكويت، 1987، ص 121.

فإذا، هناك ثلاث مرتكزات يستند عليها النموذج الحضاري الغربي في النمو والتحديث هي التي قادته إلى الأزمة والإفلاس الحضاري، ألا وهي: النمو الاقتصادي، القومية، الفلسفة الوضعية، فكيف أثرت هذه العوامل على مسار الحضارة الغربية ياترى؟

أولا: النمو الاقتصادي:

لقد اختار الغرب نموذجا في التنمية، هو مايسميه غارودي بـ"نموذج النمو لأجل النمو" « la croissance pour la croissance »، أو ما يسميه بنموذج النمو الأعمى، لكونه يفتقر إلى الغايات والأبعاد الربانية أو بالأحرى الإنسانية، بحيث يتخذ يجعل من النمو غاية له دون البحث في الغايات والأبعاد الأخيرة لهذا النمو، بحيث لم يراع فيه تنمية الإنسان، ولم تراع فيه القيم الأخلاقية والروحية(الدينية) والإنسانية، ففي هذا النموذج تتحول الوسائل كالمال والثروة إلى غايات في ذاتها بدل أن تكون وسائل لتحقيق تنمية الإنسان وعبادة الله، وقد استطاع الغرب أن يفرض هذا النموذج في النمو على العالم بأسره اليوم بفعل العولمة، وهو ما يوضحه غارودي في قوله: "يسيطر النمو الاقتصادي اليوم على العالم بأسره، طبقا للمفهوم الغربي، وهو الاستزادة من إنتاج الأشياء أكثر فأكثر، وبسرعة تتعاظم على السواء، سواء أكانت تلك الأشياء مفيدة أم غير مفيدة، ضارة أم قاتلة. تماما كالأسلحة التي غدت تجتذب أعلى الاستثمارات، لأنها تحقق أعلى نسبة من الأرباح. هذا النمو . الذي ليس من ورائه غاية إنسانية . يطغى في العالم، محولا إياه إلى غابة تصطرع فيها القوى النهمة إلى السلطة، كما تتصارع فيها الشهوات المطلقة العنان، مع إصرارها على التوسع، على حساب الأفراد والجماعات والأمم" غارودي، البديل هو الإسلام، ضمن مؤتمر القمة الإسلامي الخامس، حول: الإسلام والمستقبل، الكويت، 1987، ص 122.

إن النموذج الغربي في النمو يرتكز على مفهوم اختزالي للتنمية، بحيث يركز على النمو المادي وحده، ويتجاهل الأبعاد والجوانب الأخرى للتنمية، (لا يراعي التوازن بين الجوانب المادية والروحية)، وذلك راجع إلى طبيعة التصور الغربي للإنسان، فهو تصور اختزالي لا ينظر إلى الإنسان سوى في بعده المادي في حين يتجاهل الأبعاد الأخرى، الأمر الذي جعله يركز على إشباع الحاجات المادية للإنسان، وبهذا النهج تحول المجتمع الغربي إلى مجتمع استهلاكي همه الوحيد إشباع لذاته ورغباته. وهكذا أدى النموذج الغربي في النمو، بحسب غارودي، إلى بروز ديانة جديدة في القرن العشرين حلت محل ديانة التوحيد، ألا وهي ديانة وحدانية السوق التي حلت محل ديانة التوحيد أي عبادة السوق بدل عبادة الله الواحد، فقد استطاعت العولمة أن توحد العالم حول سوق المنتجات الغربية التي أصبحت تروج في كل مكان بفعل وسائل الاتصال والإعلانات، كالكوكاكولا والهمبرغر، والأفلام السينمائية، ومطاعم المكدونالد...

ثانيا: القومية

ثاني العوامل التي أدت إلى أزمة الغرب هي فكرة القومية، أي، اعتقاد شعب ما بأنه يشكل أمة مستقلة ومتميزة عن غيرها من الأمم بفعل وحدة الدين أو اللغة، أو الوحدة الاقتصادية، أو العامل الجغرافي، أو وحدة الماضي(التاريخ) والمصير المشترك، وقد نبتت هذه الفكرة وتغلغلت في الفكر الغربي، الأمر الذي أدى إلى بروز عدد من القوميات المتصارعة والمتحاربة، وأصبحت القومية من الدوافع الأساسية للاستعمار والصراعات والحروب الدينية، وخصوصا في ظل اعتقاد الغرب بأنه يمثل الجنس أو العرق الأسمى وهو ما يخول له فرض الحماية والوصاية على الشعوب الأخرى، وقد غذى الغرب هذه الفكرة وبثها بين الشعوب والأمم حتى يسهل عليه تفكيكها ومن ثمة السيطرة عليها واحتلالها كما حدث مع الأمة الإسلامية، وهو ما يؤكده غارودي في قوله: "ولدت القومية في أوروبا من تمزق أوصال الإمبراطورية المسيحية، ومن تطور اقتصاد السوق، وفيما بعد من الرأسمالية... أن القومية تحول الدفاع الذي لا يردعه رادع عن عرق الإنسان، أو عن مقاطعته، أو عن سوقه، أو عن مجموعة خلفياته وثقافاته، إلى غاية في حد ذاتها. فهي تعتمد إلى تفكيك الإنسانية من خلال السيطرة الاستعمارية والحروب، وهي مؤخرا تفعل ذلك من خلال "ميزان الرعب" غارودي، البديل هو الإسلام، ضمن مؤتمر القمة الإسلامي الخامس، حول: الإسلام والمستقبل، الكويت، 1987، ص 122.

وفكرة القومية إنما تعبر عن ديانة عبادة الوسائل التي يقوم عليها النموذج الغربي في النمو، في مقابل ديانة التوحيد التي يقوم عليها الإسلام، فالرؤية الكونية الاسلامية هي رؤية توحيدية، تقوم على توحيد الخالق، وهذا التوحيد يتجلى في مختلف مجالات الحياة السياسية والدينية والاجتماعية وغيرها، ومن هنا، فإن الإسلام ينادي بفكرة الأمة والجماعة كانعكاس لمبدأ التوحيد، في مقابل فكرة الفردانية والقومية التي يقوم عليه النموذج الحضاري الغربي، يقول غارودي مؤكدا هذا الاختلاف: "فهي(القومية)...على النقيض التام من "الأمة" الإسلامية، التي يرتكز مجتمعها على العقيدة حصرا، فالإسلام . بهذا . منفتح للجميع، وهادف إلى الشمول الكوني" غارودي، البديل هو الإسلام، ضمن مؤتمر القمة الإسلامي الخامس، حول: الإسلام والمستقبل، الكويت، 1987، ص 122. فالإسلام، إذن، يقوم على رؤية كونية توحيدية: [إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا...]، وفي الحديث الشريف: "كلكم لآدم وآدم من تراب"، "لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح"، وهو يرى أن الاختلاف بين الشعوب والأمم ليس

مبررا للصراع وإرادة الهيمنة بقدر ما هو مدعاة للتعارف والحوار...، ومن هنا نهى الإسلام عن العصبية، جاء في الحديث الشريف:"دعوها فإنها منتنة".

ثالثا: الفلسفة الوضعية

تشكل الفلسفة الوضعية أحد المرتكزات الأساسية التي يقوم عليها النموذج الغربي في التحديث، ويعرفها غارودي بقوله: "وهي العلم من أجل العلم، العلم منفصلا عن الحكمة. أو بتعبير آخر: هي العلم منفصلا عن التفكير في غاياته، أو عن الإيمان الذي يمنحه تبين حدوده ومبادئه الأساسية، وقيمه المطلقة. الإيمان الذي يضعه في خدمة تحرير الجنس البشري وتحقيق ذاته بديلا عن إخضاع الإنسانية وتدميرها". غارودي، البديل هو الإسلام، ضمن مؤتمر القمة الإسلامي الخامس، حول: الإسلام والمستقبل، الكويت، 1987، ص 122.

إن الفلسفة الوضعية تقوم على رفض الميتافيزيقا ورفض القيم الأخلاقية، وفي المقابل ترى أن العلم الوضعي هو العلم الحقيقي وحده، وهو العلم الذي يرتكز على الحواس والتجربة مصدرا وحيدا للمعرفة، ويجعل البحث عن القوانين غاية له، أي البحث عن كيفية حدوث الظواهر دون البحث عن علة حدوثها، وبهذا تم استبعاد الحكمة، أي العلم الذي يبحث عن الغايات من خلال طرح السؤال لماذا؟ وقد تحول العلم الوضعي من كونه وسيلة لمعرفة أسمى إلى غاية في ذلته، بحيث تحول العلم إلى علموية وهي النزعة التي تعتقد أن في مقدور العلم الوضعي أن يحل جميع مشكلات الإنسان، وكل مشكلة يعجز عن حلها لا تعد مشكلة علمية، كما يتجلى مع أوغست كونت"وبهذه الفلسفة الوضعية انفصل الغرب عن الإيمان وعن القيم، يقول غارودي:" ولقد انتهى هذا العلم المنفصل عن غاياته إلى أن يتجاهل وجود أي من الأشياء التي لا ترى، آو لا تقاس كالحب والجمال والإيمان.. ولقد أصبح هذا العلم المنفصل عن غاياته الإنسانية والربانية "دين الوسيلة" الذي يضع قوة العملاق تحت تصرف قزم فاسد منحرف، واضعا بين يديه تقنية يمكن أن يبيد بها أي أثر للحياة على الأرض اليوم" غارودي، البديل هو الإسلام، ضمن مؤتمر القمة الإسلامي الخامس، حول: الإسلام والمستقبل، الكويت، 1987، ص 122. وبهذا تحول العلم الوضعي إلى نقمة على الإنسان.

لقد وضع ديكارت اللبنة الأول لمشروع التحديث الغربي، من خلال رفعه شعار العقل، وهدفه من ذلك هو أن يجعل الإنسان سيدا على الطبيعة، وقد قامت الحداثة الغربية على هذه العقلانية فأصبح العقل الأداتي هو المحرك للنشاط الفكري والباعث على العمل، ولكن السحر انقلب على الساحر، فالغرب الذي ظن انه أصبح مسيطرا على الطبيعة ومتحكما فيها أصبح اليوم خائفا منها، ولأن العلم الوضعي قد تجرد من القيم ومن الإيمان، فقد انتهى بالغرب إلى هذه الأزمة، فقد تحول هذا العلم بنتائجه المختلفة إلى خطر يهدد الإنسان كما يتجلى في القنابل الذرية وفي الاستنساخ وفي التلوث البيئي والاحتباس الحراري،...إلخ. ومن هنا أدرك الغرب أزمة العقلانية التي قامت عليها الحداثة الغربية، وهكذا ظهر ما يسمى بمشروع ما بعد الحداثة الذي يدعو إلى مراجعة مقولات الحداثة الغربية وعلى رأسها مقولة العقل والعقلانية، وبدوره يؤكد غارودي على ضرورة البحث عن بديل لهذه العقلانية وللعلم الوضعي، من خلال دعوته إلى مشروع أسلمة المعرفة، الذي يأخذ بالتكامل المعرفي بين العقل والإيمان(الوحي)، ويقر بمحدودية العقل، ويجعل للعقل وظائف أخرى تتجاوز السيطرة على الطبيعة إلى إدراك آيات الله في الكون والأنفس حتى يهتدي الإنسان إلى الخالق الأحد، بهذا يصبح العلم وسيلة وليس غاية في ذاته.(أنظر حول هذا المشروع: الإسلام دين المستقبل، ومقالنا: أزمة العلوم

الغربية والابستمولوجيا البديل وأيضا: غارودي، البديل هو الإسلام، ضمن مؤتمر القمة الإسلامي الخامس، حول: الإسلام والمستقبل، الكويت، 1987، ص 123 وما بعدها.

2 . حتمية التغيير الحضاري وملامحه وأبعاده

لقد كرس غارودي العديد من مؤلفاته لتناول أزمة الحضارة الغربية ومن خلالها أزمة الحضارة المعاصرة، على غرار كتاب : نداء إلى الأحياء، حفارو القبور، الإرهاب الغربي، كيف صنعنا القرن العشرين؟، الولايات المتحدة طليعة الانحطاط، وغيرها من المؤلفات حيث شخص أمراض هذه الحضارة والأزمات التي تعاني منها وتهدد مصيرها ومصير الإنسانية كافة، محاولا بذلك دق ناقوس الخطر، داعيا إلى التغيير الحضاري من أجل إيجاد بديل حضاري كفيل بإنقاذ كوكبنا من الانتحار، فالتغيير الحضاري بالنسبة إليه أصبح أمرا حتميا واستعجاليا نظرا لخطورة الأزمة، يقول: "فالعالم المشروخ، العالم السائر على غير هدى، أي العالم ذو الإرادة الأكثر عبثية والأدعى للشفقة، لا يمكنه أن ينجو من التفسخ ومن الموت، بأية وصفة سحرية ذات مفعول فوري، سواء أكانت اقتصادية، أو سياسية، أو دينية. علما بأن الطفرة لا تحتمل التأجيل لأنها الوحيدة القادرة على إنقاذ القرن الواحد والعشرين من الانتحار الكوكبي، وعلى تهيئة الانبعاث والنشور" الانقلاب الكبير، ص8. وقد كرس غارودي العديد من مؤلفاته لهذا الموضوع مثلما تنم على ذلك عناوينها، منها على سبيل المثال: كتاب البديل (1972)، كيف نصنع المستقبل؟، الانقلاب الكبير، مشروع الأمل، الإسلام دين المستقبل،...إلخ.

فما مفهوم وطبيعة التغيير الحضاري عند غارودي؟ وما هي ملامحه وأبعاده ياترى؟

1 . مفهوم وطبيعة التغيير الحضاري عند غارودي

إن فلسفة غارودي للحضارة الغربية قادته إلى نتيجة مؤداها أن هذه الحضارة تعيش أزمة خطيرة تنذر بإفلاسها وانهيارها، وهي نفس النتيجة التي قررها العديد من فلاسفة الحضارة مسلمين كانوا أم غربيين (ينظر في ذلك: مالك بن نبي، توينبي، شبنجلر، ألبرت شفيتسر...)، وفي تشخيصه لهذه الأزمة توصل إلى أن هذه الأزمة شاملة وعميقة بحيث لا تخص جانبا أو مجالا واحد دون غيره، فهي تضرب في الاقتصاد والسياسة والدين والعلم، والتربية والثقافة، بمعنى أنها أزمة حضارية، وعلى قدر هذه الأزمة، فإن الحل الذي يقترحه لتجاوز هذا الأزمة هو التغيير الجذري، الجوهري، والشامل، وفي ذلك يقول: "مجتمعنا[يقصد المجتمع الغربي، ولو أن الأمر صار أشمل، بعد هيمنة النموذج الحضاري الغربي وعولمته] في سبيله إلى الانحلال. فلا غنى عن تحويل جوهري" البديل، ص07،

إن التغيير الذي ينشده غارودي، إذن، لتجاوز أزمة النموذج الحضاري الغربي، هو تغيير حضاري، شامل لمختلف الميادين: الاقتصاد والسياسة، الإيمان، التربية، والثقافة، فلا ينبغي أن يكون التغيير في نظره ترميما أو ترقيعا جزئيا وشكليا، كأن يقتصر على ميدان السياسة أو الاقتصاد أو غيرهما فقط، كما يفعل الغرب الآن كلما ضاق به الأمر وأراد الحل لأزماته، فيختار حينا العلمانية وحينا الديمقراطية، حينا الرأسمالية وأخرى الإشتراكية، مثلما يؤكد ذلك في قوله: "وأزمة بمثل هذه الضخامة تتطلب، كيما تحل، أكثر من ثورة. تتطلب تغييرا جذريا لا لنظام الملكيات وهياكل السلطة فحسب، بل أيضا لبنى الثقافة والمدرسة[التربية والتعليم]، الدين والإيمان، الحياة ومعناها. تغيير العالم وتغيير الحياة...والفرضية المستبعدة الوحيدة هي الاستقرار في الطريق الراهنة. وليس المطلوب إيجاد أجوبة جديدة لمشكلات قديمة. وإنما نحن مطالبون، إزاء

المهام المستجدة التي تواجهنا، بتغيير طريقة طرح الأسئلة بالذات. ومطالبون في المقام الأول بأن نطرح الأسئلة الحقيقية انطلاقا من المشكلات التي تربط بيننا لا من الإيديولوجيات التي تفرق بيننا" **البديل** ص8

فمن خلال هذا النص يتبين لنا بأن التغيير الذي ينشده غارودي ويدعو إليه يهدف إلى اقتراح مشروع حضاري جديد بديل للنموذج الحضاري الغربي القائم ومختلف عنه اختلافا جوهريا، إنه يريد تدشين تاريخ جديد لمسيرة الإنسان والحضارة، وفي هذا السياق كتب كتابه "البديل"، حيث يقول: "أن نعاني من مصير أو أن نشيد تاريخا. إن هذا الكتاب مبني على هذا الاختيار. ليس هو ببرنامج، وإنما مشروع حضارة".البديل، ص8، بمعنى أن غارودي لا يريد تقديم برنامج عمل، أي وصفة سحرية استعجالية على طريقة رجال السياسة والحكم، لتطبيب أمراض الحضارة الغربية، بل يريد تقديم مشروع حضاري بديل، فالكتاب، كما يقول غارودي، يمثل "نداء وحافزا لكل من يحب المستقبل، ولكل من يجد معنى لحياته وفرحها في فعل المساهمة في الخلق. الخلق بالعمل الفني، بالإيمان الديني، بالحب، بالفكر، أو بالثورة" البديل، ص8، ويخص بالذكر الشبيبة، فهو يعول عليها في هذا التغيير الحضاري المنشود من أجل بناء مستقبل ذو وجه إنساني، مبررا ذلك بقوله: " لأن الشباب هو أن نكون قادرين على أن نتصور وعلى أن نحيا، حياة مختلفة جذري الاختلاف عن تلك التي نعيشها اليوم". البديل، ص8

فالمستقبل للشبيبة، ومن ثمة، فمسؤولية التغيير الحضاري تقع على هذه الشبيبة إذا أرادت أن تحيا حية مختلفة عن تلك التي قادتنا إليها الحضارة الغربية، حياة المخدرات والإجرام والانتحار والاغتراب والانحلال الأخلاقي والفراغ الروحي وهلمجرا من الآفات والجرائم الإنسانية.

إن التغيير الحضاري عند غارودي، هو عبارة عن ثورة ثقافية، تهدف إلى التغيير الجذري لعلاقة الإنسان بالله(الإيمان)، وعلاقته بالطبيعة، وعلاقته بغيره من الناس (بالإنسان الآخر)، كما يتضح من قوله: "... نحن حيال عمل لا يحتمل التأجيل لإجراء طفرة حقيقية من الثقافة بجميع أبعادها: علاقاتنا مع الطبيعة، علاقاتنا مع الناس (مع الآخر)، علاقاتنا مع "الواحد الأحد" (مع الله على حد قول بعضهم)". الانقلاب الكبير، ص8.

2 . ملامح التغيير الحضاري عند غارودي

كثيرة هي المشاريع الفكرية الداعية إلى التجديد والتغيير الحضاري، ولكل مشروع خصوصياته بحسب اختلاف المشارب الفكرية والإيديولوجية لأصحابه، ومنه نتساءل: ماهي ملامح التغيير الحضاري في مشروع غارودي الفكري؟

إن المشروع الفكري الحضاري عند غارودي هو مشروع إنساني يهدف إلى تنمية الإنسان تنمية شاملة ومتكاملة، فهو يرى أن كل تقدم أو نمو لا يؤدي إلى تنمية الإنسان وتفتح طاقاته وتكامله لا يعد تنمية حقيقية ولا يعد تقدما حقيقيا، لمعنى أنه يجعل تنمية الإنسان تنمية شاملة ومتوازنة لمختلف أبعاده المادية والروحية (المعنوية) المعيار الحقيقي للنمو والتقدم، ومن هنا يرفض فكرة تقدم الغرب لأن التقدم الغربي أدى إلى أزمة الإنسان، إلى انحطاطه وتعاسته وشقائه لا إلى تنميته، فالإنسان الحديث يعيش أزمة حقيقية على حد قول تشارلز فرنكل في كتابه أزمة الإنسان الحديث وغيره من المفكرين على غرار أريك فروم في كتابه"الإنسان بين الجوهر والمظهر"، و"هربرت ماركيوز" في كتابه"الإنسان أحادي البعد" وكولن ولسون في "اللامنتمي" "وما بعد اللامنتمي"، ورينيه غينون في كتابه "أزمة العالم الحديث"، كما عبر عنها " المهاتما غاندي"، ومن المسلمين "علي شريعتي" ومحمد إقبال ومالك بن نبي وعزت بيجوفيتش وآخرون غيرهم.

إن السؤال المحوري في مشروع غارودي الفكري والذي طالما بحث عن جواب له في المذاهب الفلسفية والدينية (الماركسية، المسيحية، الإسلام) هو: كيف نبني مستقبلا ذو وجه إنساني؟ بمعنى أن التغيير الحضاري الذي ينشده هو بناء مستقبل ذو وجه إنساني،أي، البحث عن مناخ حضاري يكفل للإنسان التعبير عن كافة إمكاناته وطاقاته الخلاقة، وان يحيا حياة تليق بإنسانيته، فهو خليفة الله في الأرض (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة)، والكائن الوحيد الذي نفخ فيه الله من روحه(فإذا سويته ونفخت فيه من روحي)، وخصه بالتكريم(ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر)، إذا الإنسان يستحق حياة أفضل، وقد أخطأ الغرب في تصوره للإنسان حين رفعه أحيانا إلى مرتبة التأليه (النزعة الإنسانية الإلحادية) فجعله مركز الكون والأشياء جميعا قاطعا بذلك صلته بالله وبهذا أهمل البعد الروحي للإنسان، وحط من قدره أحيانا أخرى حين جعله عبدا للطبيعة أو المادة، فنظر إليه على أنه جزء من الطبيعة/المادة تسري عليه نفس القوانين التي تسري على المادة وليس له أي امتياز(الرؤية الكونية المادية). وهكذا فإن خطأ التصور الغربي للإنسان قاده إلى وضع مشاريع تنموية خاطئة لأنها بنيت على تصور باطل، وما بني على باطل فهو باطل.

إلى ذلك، فإن التغيير الحضاري في مشروع غارودي الفكري يرمي إلى إعادة الأمور إلى وضعها الصحيح، يقول موضحا ملامح التغيير الحضاري المنشود: "الطفرة الجذرية الكبرى في التطور الإنساني لا يمكن أن تتحقق بتدابير سياسية واقتصادية لا غير، وهي التدابير الضرورية لذلك التغيير، بل يجب أن تنهض على تحول حقيقي للإنسان بالذات، باختياره للغايات الأخيرة التي سوف تتيح له بحق وحقيق أن يصبح إنسانيا. وفي هذا ما يفترض قيام قطيعة مع الأنماط الموروثة للتشكل، التي لم تتمكن حتى هذه اللحظة من تحقيق الإنسانية الكاملة للإنسان، أعني الوحدة الإنسانية الحقة التي تتيح للجميع في العالم التفتح الكامل لإمكانيات كل فرد" الانقلاب الكبير، ص7.

إن تحقيق هذا المشروع الحضاري الإنساني، يتطلب كيما يتحقق، في نظر غارودي، "انقلابا جذريا:

1. في التربية، التي لا يجوز أن تكون بعد اليوم جاهلة لرسالتها الجوهرية: البحث عن الغاية الأخيرة وعن معنى الحياة.

2. في مفاهيمنا حول "الفنون" كي تتوقف عن الإسهام في تفسخ الإنسان منذ شبابه، وكي تستعيد على العكس (لا رجوعا إليها وإنما استمرارا بها) وظيفتها كبشارة تحمل وعد المستقبل قيد التبرعم.

3. في الحب الذي لا يستعيد بقدسية معناه الإنساني، تصديا لجميع الانقلابات وأبواب الفساد الحالية لدى شبيبة مسترسلة مع ممارسة للجنس دون حب.

4. في الإيمان أخيرا، والذي يجب أن نجرب تخطيط مراحله عبر التجربة الرائعة في "فاتيكان 2" وعبر لاهوتيات التحرر التي تستعيد مع الإيمان نجمها القطبي، بما هو أبعد مدى من التنوع، المتعارك أحيانا، في نطاق مجموع الديانات". الانقلاب الكبير، ص8.

والسؤال المطروح: هل النموذج الحضاري الذي يدعو إليه ويعول عليه غارودي في تحقيق التغيير المنشود، وإنقاذ الإنسان والحضارة، ممكن التحقيق؟ أم أنه مشروع طوباوي على غرار المشاريع التي حلم بها بعض الفلاسفة في مدنهم وجمهورياتهم الفاضلة؟

4. دور الإسلام في التغيير الحضاري المنشود

لقد كان غارودي دوما مهموم بالبحث عن بديل حضاري للنموذج الحضاري الغربي الذي أعلن إفلاسه، ولطالما قدم تصورات واقترح بعض الحلول والبدائل لهذه في هذا الخصوص، وبتعرفه على الإسلام اكتشف حقيقة هذا الدين وما ينطوي عليه من إمكانات حضارية تؤهله لأن يكون دين المستقبل والبديل الحضاري الأمثل للنموذج الحضاري الغربي، وقد عبر عن هذه القناعة صراحة في العديد من المؤلفات والدراسات والمناسبات التي كرسها لهذا الموضوع حيث يقول في ذلك: "لقد أفلس الغرب بعد خمسة قرون من الهيمنة المطلقة، وهاهو يقودنا إلى الهلاك. وسيستعيد الإسلام حظوظه في الانتشار العالمي كسالف عهده أيام ازدهاره، يوم يدرك الغربيون في غالبيتهم هذا الفشل التاريخي الذي مني به نموذجهم في النمو وفي الثقافة على غرار ما يفعله بعضهم الآن. فعليه أن يتأهب إذن ليتقلد هذه الخلافة التاريخية أولا بتوجيه نقد لاذع وبناء لغايات علوم الطبيعة في الغرب ولمناهج العلوم المدعوة بالعلوم الإنسانية ليتعلم كيف ينظر إلى العالم وإلى تاريخه ومستقبله نظرة إسلامية، وبإعطاء صورة عن إسلام حي شبيه بالإسلام في فجر أيامه، الذي انطلق لفتح العالم فتحا روحيا، فالعودة إلى هذه الحركية وإلى روح المبادرة هذه إنما تعني العودة إلى روح الاجتهاد كما تصوره الرسول (صلعم) والمتمثل في الوحدة التي لا تتجزأ بين المبادئ الخالدة للرسالة وتطبيقها الحي لبناء مستقبل عالم يجدد الله خلقه على الدوام" ملتقى الاجتهاد، ص282

ففي هذا النص، إذن، تتأكد قناعة غارودي، بأن الإسلام هو دين المستقبل بعد أن أثبت النماذج الغربية في النمو رأسمالية كانت أو اشتراكية فشلها، فكأن الظروف التاريخية التي يمر بها العالم حاليا، إنما تهيئ الأمور لعودة الإسلام من جديد، الإسلام الحي كما يسميه، الإسلام الذي قاد الأمة الإسلامية إلى المجد والحضارة، فهو، إذن، يراهن على الإسلام من أجل إنقاذ مستقبل الإنسانية، حيث يقول: "فإن نحن انقدنا لتيارات الحضارة الغربية هذه قمنا باغتيال أحفادنا، لأننا لن نكون قد أنجزنا مهمتنا التي أوكلها الله إلينا، ألا وهي أن نكون خلائف في الأرض. ترى هل سنكون قادرين على إيجاد بديل إسلامي لهذا السباق المحموم نحو الموت؟ وهل سيكون بإمكاننا . في هذه الظروف التاريخية . أن نتبع الطريق الصحيح، أي "الصراط المستقيم" الذي بينه لنا القرآن الكريم؟ إن مستقبل الإنسانية . بل مجرد بقائها . سيتوقف على ذلك". غارودي، البديل هو الإسلام، ضمن مؤتمر القمة الإسلامي الخامس، حول: الإسلام والمستقبل، الكويت، 1987، ص 123.

وإذا كان غارودي يبدو متفائر بمستقبل الإسلام على هذا الحد، فإن السؤال المطروح هو: على أي أساس يبني غارودي تفاؤله بمستقبل الإسلام؟ وما هي الإمكانات التي ينطوي عليها الإسلام ليلعب دور المنقذ، بحسب غارودي؟

إن الإسلام، في نظر غارودي، هو المؤهل لأن يكون بديلا للحضارة الغربية المعاصرة، وقد جاءت هذه الأطروحة نتيجة لتحليل تاريخي نقدي وليس نتيجة لأحلام أو دعاوى إيديولوجية كما هو الحال بالنسبة للكثير من الخطابات الإسلامية التي ترفع شعار الإسلام هو البديل أو الإسلام هو الحل. فهو يرى أن العوامل التي صنعت مجد الإسلام وعظمته لا تزال قائمة فيه، فالشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، ولا يمكن حسبه قياس حقيقة الإسلام على واقع المسلمين، صحيح أن المسلمين اليوم يقبعون في أسفل السلم الحضاري، ولكن الإسلام بريء من هذا التخلف ولا يتحمل مسؤوليته، ذلك أن تخلفهم يرجع إلى عوامل أخرى لا علاقة لها بالإسلام، بل أكثر من ذلك، فإن هذا الانحطاط

يرجع في نظره إلى ابتعادهم عن روح الإسلام الصحيح، وإلى سوء فهمهم للدين وسوء تطبيقهم للشريعة، وقبل أن نتحدث عن هذا الجانب باعتباره يدخل في نطاق معوقات النهوض الحضاري، سنتناول بداية مقومات التغيير الحضاري في الإسلام من منظور غارودي.

5. مقومات التجديد الحضاري في الإسلام

إن غارودي يبني تفاؤله بمستقبل الإسلام استنادا إلى خصائص الشريعة الإسلامية، هذه الشريعة التي يراها صالحة لكل زمان ومكان، فهي لم ولن تفقد شيئا من بريقها وقيمتها، شريطة أن تفهم فهما صحيحا كما فهمها السلف الصالح، ففي الشريعة الإسلامية نعثر على كل إمكانات النهوض الحضاري، التي تجعل الإسلام مؤهلا لقيادة الإنسانية نحو بر الأمان، ويحددها غارودي فيما يلي:

5. 1. المفهوم الإسلامي للتنمية

رأينا فيما سبق كيف أن غارودي يعتبر النموذج الغربي في النمو مسؤولا مسؤولية كبيرة عن أزمة الحضارة الغربية المعاصرة، كونه يفتقر إلى الأبعاد الربانية الإنسانية، فهو يقوم على مبدأ النمو لأجل النمو، وعلى خلاف ذلك فإن الإسلام يقدم مفهوما مغايرا للتنمية. إن التنمية في الإسلام تقوم على التوازن بين الجوانب المادية والروحية، وهي لا تستهدف النمو أي، الزيادة الكمية، بقدر ما تستهدف تنمية الإنسان وتحقيق عبادة الله، سواء كانت هذه التنمية سياسية أو اقتصادية أو ثقافية أو غيرها، مصداقا لقوله تعالى: "ما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون"، وقوله عز وجل:"قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين بهذا أمرت وأنا أول المسلمين"، بهذا المعنى، فإن لتنمية في الإسلام مضبوطة بأوامر الله ونواهيه.

إن مفهوم التنمية في الإسلام يرتكز على من تصور إسلامي للإنسان يتصف على خلاف التصور الغربي بالشمولية والتوازن، فالإنسان كائن متعدد الأبعاد، فلابد إذن أن تستهدف التنمية كافة هذه الأبعاد وإلا كانت تنمية اختزالية وغير متوازنة، وبالتالي، لن تؤدي إلى تنمية الإنسان وسعادته.

إلى ذلك يرى غارودي أن النموذج الإسلامي في التنمية هو المؤهل لإنقاذ كوكبنا من الانتحار الذي قاده إليه النموذج الغربي في النمو، يقول في ذلك: "على شكل مغاير للنمو الاقتصادي الكمي المحض، ذلك الذي أعدنا إلى الأذهان تعريفه مما أعطاه الغرب، فإن جوهر مفهوم الإسلام للتطور الإنساني مبين في القرآن، بقوله تعالى: "سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى."[الأعلى: 1 .3]. والإنسان، في مفهوم الإسلام، "خليفة" في الأرض. [وهو كائن رباني بحكم أن الله نفخ فيه من روحه] فمم إذا تتألف مهمته، إن لم تكن تسخير أفكاره وجهوده كلها للإسهام في تحقيق مشيئة الله؟ ! وبتعبير آخر، أن يحقق الإنسان على الأرض كل الظروف التقنية والاقتصادية والثقافية، التي تضع تحت تصرف كل طفل وكل امرأة وكل رجل الوسيلة التي تنمي كل الإمكانات التي منحها الله كلا منهم" البديل هو الإسلام، ندوة الكويت، ص129.

إن الإمكانيات الحضارية موجودة، إذن، ولكن الذي ينقص هو الإرادة الحضارية، كما أشار إلى ذلك مالك بن نبي، فالمسلمون بحاجة إلى العودة إلى الشريعة الإسلامية، إلى المصدر والأصول، إلى النبع الصافي من أجل فهم الإسلام فهما صحيحا وتكييفه مع روح العصر، فالعودة إلى الأصل لا تعني الانغلاق أو الجمود والتقليد، بل إن غارودي يؤكد

على ضرورة الانفتاح على حقائق العصر بالاستفادة من النظريات المعاصرة والتقنيات الحديثة التي لا تتعارض مع المبادئ الإسلامية الثابتة والخالدة، يقول في ذلك: "من هذا المنطلق وحده، منطلق الروح الشمولية للقرآن يمكن للنموذج الإسلامي في التطور الإنساني أن يبرز، واضعا . في المكان الصحيح . اقتصادا متطورا، منسجما مع الحاجات الإنسانية الحقيقية من جهة، ومع مشيئة الله من الجهة الأخرى. ونؤكد أن هذا النموذج لابد له أن يقوم، وهو بمقدورنا إذا بدلنا غاية جهدنا دون أن نحيد عن المبادئ الخالدة للقرآن، وعن حقائق عصرنا، وحتى عن تلك التقنيات الاقتصادية التي يحتمل أن تكون صالحة، وتتضمنها النظريات الاقتصادية لهؤلاء الذين يحاربوننا، سواء أكانوا اقتصاديين كلاسيكيين أم كانوا اقتصاديين ماركسيين. وهناك كذلك، يتم إعداد تركيب يؤلف وحدة متكاملة، كل جزء من أجزاء الحقيقة فيه قد جرى انتقاؤه بعد الدراسة والنقد". البديل هو الإسلام، ندوة الكويت، ص136.

2.5 . العدالة الاجتماعية

تعد العدالة الاجتماعية، في نظر غارودي، من أهم المبادئ والأركان التي تقوم عليها الشريعة الإسلامية، ومن هذا المبدأ يستمد الإسلام عظمته وقوته وثورته، فالإسلام يرفض الظلم والاستغلال ويدعو إلى المساواة والعدل وإحقاق الحق، ومن هنا فهو يختلف اختلافا جوهريا مع النظم الغربية، رأسمالية كانت أو اشتراكية، التي لم تفلح في تحقيق هذه العدالة برغم الشعارات والمبادئ التي نادت بها.

ولتحقيق هذه الغاية(العدالة الاجتماعية) فقد فرض الإسلام الزكاة على الأغنياء وجعلها حق للفقراء والمحتاجين، كما حرم الربا وجمع المال والكسب غير المشروع، وبهذا استطاع الإسلام أن يؤسس مجتمعا يسوده العدل والاستقرار والأمن والمحبة والتعاون والتضامن على نحو لم يتحقق في أي مجتمع غربي رأسمالي أو شيوعي، وفي ذلك يقول غارودي: "إن أكثر ما يعارض روح القرآن هو أن يطبق أسلوب في العقاب قبل أن تجعل العدالة الاجتماعية قاعدة، والقرآن واضح جدا وجلي في هذه النقطة. إنه يشجب التهافت على جمع المال، ويدين الذين يجمعونه بالطريقة غير الشرعية "الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ" [الهمزة:02]، وكما يقول: "...وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" [التوبة: 34]. فالله ينذر من يفعل ذلك بعقاب نار جهنم. لقد نظم القرآن والسنة إعادة توزيع المال، فالقرآن وضع أسس الزكاة... وفي البلد الذي تطبق فيه أحكام الزكاة بصرامة تأخذ الشريعة الحق حكمها على المستوى الاقتصادي، والمستوى الاجتماعي. وعند ذلك يكون السارق مريضا عقليا، لأنه لا يعود هناك أي "دافع" يدفع الإنسان إلى السرقة" البديل هو الإسلام، ندوة الكويت، ص 135.

ويعيب غارودي على الكثيرين سوء فهمهم للشريعة، حيث اختزلوا هذا المفهوم في قانون العقوبات، وهو ما يعترض عليه غارودي، حيث يرى بأن "في القرآن (6636) آية، منها (228) آية فقط هي التي تتعلق بالأحكام الشرعية. ومن ضمن هذه الآيات المتعلقة بالأحكام الشرعية...ثلاثون آية لقانون العقوبات. ومعنى هذا أن 4% من آيات القرآن تتعلق بالقانون، ومن هذه 7% تخص قانون العقوبات. بينما يبحث القرآن بأكمله تقريبا في العقيدة، وفي المعاني الأخلاقية، وفي "الصراط المستقيم". وبتعبير آخر في الغايات التي علينا أن نواصل السعي إليها تحقيقا لمشيئة الله..." البديل هو الإسلام، ندوة الكويت، ص129.

وعلى هذا، فإن تطبيق الشريعة لا يعني، كما يظن البعض عادة، إنزال العقوبات على المخالفين للقانون الإلهي، كقطع يد السارق، وجلد الزاني، وغير ذلك، فهذا الفهم منافي للإسلام وشريعته السمحة، يقول غارودي: "وإنه من السهل المنافي للمعقول أن نبدأ من النهاية. أو بتعبير آخر أن نطالب بإنزال العقوبات والجزاء قبل أن نحقق العدالة". البديل هو الإسلام، ندوة الكويت، ص 135.

5 . 3. البعد الكوني لرسالة الإسلام

إن الإسلام لا يحمل الحل والأمل للمسلمين وحدهم بل يمثل آمال البشرية كافة، وذلك بالنظر إلى البعد الكوني (العالمي) لرسالة الإسلام، فالإسلام هو دين الإنسانية كافة، قال تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ"(الأنبياء: 107) وهو ما يؤهله لأداء رسالته الحضارية الإنسانية العالمية.

إن الإسلام، كما يقول غارودي "ليس الإسلام مجرد دين بين الأديان. ولم يدع محمد (صلعم) أنه قد أرسى قواعد دين جديد (وحسب)، بل ليذكر الناس بالدين الأصلي الذي وجد منذ خلق الإنسان الأول: "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" [الروم: 30]. فالإسلام هو الدين الأول والرسالة الأخيرة معا، إنه البعد السامي للجنس البشري كما عرف في كل مستوى من مستويات الوجود. الإسلام في مبدئه الأساسي أكثر الأديان عالمية: "شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى به نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا به إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ..."[الشورى: 13] رسالة واحدة بينت للجميع، ذلكم هي "الخضوع لقانون الإله الواحد" البديل هو الإسلام، ندوة الكويت، ص136. 137.

إذا، الإسلام ليس نظاما أو قانونا أو شريعة خاصة بأمة دون أخرى بل هو شريعة الله الواحد المرسلة إلى الناس كافة، كل أمة يمكنها أن تجد فيه ضالتها والحلول لمشكلاتها، ومن هنا يرى غارودي أن "مهمتنا جميعا أن نطبق هذا القانون الإلهي، وأول أمر فيه هو العدالة الاجتماعية. وهي مهمة كل رجل وامرأة، كل من يعتقد بأن الإنسان ليس محور كل الأشياء ولا هو مقياسها. إنها على العكس من ذلك مهمة كل من يعتقد بأن القيم المطلقة والشريعة ذات وجود فعلي، وبأنهما سينتصران في المجتمع المخلص العادل الذي يشعر كل عضو فيه بأنه مسؤول عن الآخرين، بشكل مغاير للفردية الغربية، وفي الختام يجب أن تنتهي خلافاتنا كلها..."

إن غارودي يؤكد على وحدة الأديان، فكل الديانات السماوية تعود إلى مصدر واحد هو الإسلام، دين الفطرة، الذي ظهر مع سيدنا إبراهيم، الذي أطاع الله وسلم أمره إلى الواحد الأحد، فالإسلام، يعني الطاعة والانقياد لأمر الله، فهو إذن، الديانة الإبراهيمية، مصداقا لقوله تعالى: "مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ"[الحج: 78]، ذلك هو معنى الإسلام، في نظر غارودي. إنه ليس دينا جديدا ولد مع نبوة محمد(ص)، مصداقا لقوله تعالى:"قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ"[الأحقاف: 09]، وقوله عز وجل: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ" [الرعد:38]، في إشارة إلى استمرارية الرسالة، فكلهم رسل الإله نفسه أو بتعبير "روجيه أرنلديز:"رسل ثلاثة لإله واحد، قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ" [الأنبياء:108]، يقول غارودي: "فليس الله إلها خاصا، وقفا على المسلمين. الله هو الترجمة الحرفية لكلمة تدل على الاله الواحد الأحد. والمسيحي العربي يقول في صلاته وشعائره: الله، ليتضرع إلى ربه. ويعني الإسلام

التوكل الإرادي والحر على الإله الواحد الأحد، وذلك هو القاسم المشترك بين الأديان المنزلة: يهودية ومسيحية وإسلام" الإسلام، ص19 وما بعدها.

إن هذه الروح الكونية الشمولية العالمية التي يحملها الإسلام، تناقض النزعة العرقية التي يقوم النموذج الحضاري الغربي والتي أدت إلى الحروب والصراعات واللاأمن واللااستقرار. وهو ما يؤكده غارودي قي قوله: "فهي(القومية)...على النقيض التام من "الأمة" الإسلامية، التي يرتكز مجتمعها على العقيدة حصرا، فالإسلام . بهذا . منفتح للجميع، وهادف إلى الشمول الكوني" غارودي، البديل هو الإسلام، ضمن مؤتمر القمة الإسلامي الخامس، حول: الإسلام والمستقبل، الكويت، 1987، ص 122. فالإسلام يقوم على رؤية كونية توحيدية: [إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا...]، وفي الحديث الشريف: "كلكم لآدم وآدم من تراب"، "لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح"، وهو يرى أن الاختلاف بين الشعوب والأمم ليس مبررا للصراع وإرادة الهيمنة بقدر ما هو مدعاة للتعارف والحوار...، ومن هنا نهى الإسلام عن العصبية، جاء في الحديث الشريف:"دعوها فإنها منتنة"، بهذه الروح يمكن القول بأن الإسلام يحمل رسالة سلام ومحبة للبشرية، تؤهله لأن يكون بحق دين المستقبل وأمل الإنسانية في الخلاص من أزماتها.

6. معوقات النهوض الحضاري في الإسلام

مما سبق يبدو لنا بأن غارودي متفائلا بمستقبل الإسلام، بحيث يعلق عليه آمالا كبيرة في التغيير الحضاري، من خلال أطروحته "الإسلام دين المستقبل"، الأمر الذي جعل بعض نقاده (علي حرب، أركون وغيرهما) يصفون مشروعه بالطوباوية، ويتهمونه بممارسة الايديولوجيا على طريقة الإسلام السياسي، كون أن الواقع يخالف هذه الأطروحة ويناقضها بحيث أن الواقع يظهر بأن المسلمين يعيشون في أسفل السلم الحضاري، ويعانون من التبعية للغرب، فلم ينفعهم إسلامهم في تجاوز تخلفهم، فكيف يمكن إذن للإسلام أن يكون بديلا للحضارة الغربية؟ وأنى له أن يقود البشرية نحو بر الأمان؟

الواقع أن غارودي يدرك جيدا أن هناك تحديات تواجه الإسلام من شأنها أن تشكل عائقا أمامه في أداء رسالته الحضارية، ومن هنا نجده يتساءل: "لماذا . في وقتنا الحالي . لا ترسل هذه الشريعة أشعتها عبر العالم بأسره؟ لماذا تبقى الشعوب المسلمة . رغم خلاصها من الاستعمار . موضوعا للدراسة بدلا من أن تكون فاعلة خلاقة للتاريخ؟ لماذا لا تكون الشعوب الإسلامية قدوة للمبادرة التاريخية؟" البديل هو الإسلام، ندوة الكويت، ص 131.

إن هذا التساؤل يوحي بأن هناك معوقات تحول دون أداء الإسلام رسالته الحضارية المنوطة به، وتتمثل هذه العوائق حسب غارودي فيما يلي:

6. 1. التقليد

إن من أهم المصائب التي ابتلي بها الإسلام في عصر الانحطاط، بحسب غارودي، مصيبة التقليد، فقد توقف المسلمون عن الاجتهاد والإبداع وراحوا يلتمسون الحلول لمشكلاتهم الراهنة الاقتصادية والسياسية وغيرها، إما في تقليد النموذج الحداثي الغربي(التيار الحداثي العلماني)، أو في تقليد النموذج التراثي السلفي(التيار السلفي)، ومن هنا فقد عجز المسلمون عن النهوض الحضاري برغم ما يزخرون به من إمكانات حضارية، ومن ثمة، فإن الإسلام ليس مسؤولا عن تخلف المسلمين وانحطاطهم لأن الإسلام يدعو إلى الاجتهاد ويرفض التقليد، فالخطأ إذن يعود على المسلمين وحدهم،

مثلما يؤكد ذلك غارودي في قوله: "فمحاكاة الغرب، أو محاكاة الماضي دربان لا ينفذان إلى أي مستقبل" (الإسلام، ص12).

وانطلاقا من هذا التشخيص لأزمة المسلمين، يدعو غارودي المسلمين إذا ما أرادوا تحقيق النهوض والشهود الحضاري (طبقا لقوله تعالى :"وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا "(البقرة: 143)، إلى الابتعاد عن التقليد، حيث يقول في ذلك: "علينا أن نرفض محاكاة الغرب. كما علينا أن نتجنب تقليد الماضي. علينا أن نتذكر أن مستقبل الإسلام لا يرتكز على إعلان إفلاس العالم، كما أنه لا يقف عند ترديد الصيغ الجاهزة لبنى وجدت كي تساعد على حل مشكلات الناس في العصر الأموي أو العباسي. وختاما، أود أن أصرح بأن علينا أن نحذر من الاعتقاد بانتصارنا على كل شيء، ومن التظاهر بادعاء أننا نستطيع وحدنا حل مشكلات كل إنسان" البديل هو الإسلام، ندوة الكويت، ص136.

وإذا كان غارودي يرفض التقليد، فإن الحل حسبه يكمن في "التزام واضح مخلص، مفهوم وسريع للشريعة الربانية" البديل هو الإسلام، ندوة الكويت، ص135، بمعنى، أن نلتزم بروح الشريعة الإسلامية السمحة، ونجتهد في فهمها كما اجتهد السلف في فهمها من أجل حل مشكلاتنا كما حلوا هم مشكلات عصرهم، فلكل عصر مشكلاته، والشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان.

6. 2 . الأصولية

الأصولية، بحسب غارودي، هي مرض الإسلام في عصرنا هذا، وهي إحدى العوامل التي تعيقه عن أداء رسالته التاريخية والحضارية، والأصولية كما يعرفها غارودي: "تقوم على معتقد ديني أو سياسي مع الشكل الثقافي أو المؤسسي الذي تمكنت من ارتدائه في عصر سابق من تاريخها. وهكذا تعتقد أنها تمتلك حقيقة مطلقة وأنها تفرضها" الأصوليات المعاصرة أسبابها ومظاهرها، ص11.

فالأصولي، بهذا المعنى، هو من يتمسك بعقيدة أو بمذهب معين وجد في عصر سابق تمسكا حرفيا ظنا منه بأن هذا المذهب يمثل الحقيقة المطلقة وأن من خالفه في الشكل أو المضمون فهو على باطل ويجب مقاومته ولو بالحديد والنار، ومن هذا التعريف يمكننا أن نستخلص مع غارودي المكونات الأساسية للأصولية، وهي كالتالي:

أولا: الجمودية (رفض التكيف)، جمود معارض لكل نمو، لكل تطور.

ثانيا: العودة إلى الماضي (الانتساب إلى التراث"المحافظة").

وثالثا: عدم التسامح، الانغلاق، التحجر المذهبي، تصلب، كفاح، عناد."ص13.

بهذا المعنى تبدو الأصولية أو ما يطلق عليه بالإسلاموية متعارضة تماما مع روح الإسلام، فضد الجمود، يدعو الإسلام إلى الاجتهاد والإبداع للتكيف مع المستجدات، وضد الانكفاء على التراث والانغلاق عليه، فإن الإسلام يدعو إلى المعاصرة ومسايرة التطور، وضد التعصب والعنف، فإن الإسلام يدعو إلى الحوار والتسامح.

إلى ذلك، يمكن القول مع غارودي بأن الفكر الأصولي الإسلامي لم يخدم الإسلام بقدر ما أضر به إذ شوه حقيقة رسالته، ومن هنا يدعو غارودي إلى محاربة هذا المرض، وذلك بالعودة إلى الرسالة القرآنية، أي إلى المصدر أو المنبع الصافي المتمثل في القرآن حيث نعثر على رسالة الإسلام الحقيقية، وفي ذلك يقول: "أما دحض الأصولية الإسلاموية فلا

يجري انطلاقا من غرب تلوح تباشير انحطاطه، بل من الداخل: انطلاقا من الرسالة القرآنية التي تبين أن الإسلامية هي مرض الإسلام" الأصوليات المعاصرة ص11 . 12

7 . شروط الانبعاث الحضاري في الإسلام

إذا كان غارودي قد نبه إلى معوقات النهوض الحضاري في الإسلام، فإن ذلك لم يقلل من تفاؤله، بل أكثر من ذلك فهو يرى أن الإسلام اليوم مؤهل أكثر من أي وقت مضى لأداء رسالته الحضارية، بعد أن فشلت النماذج الغربية كلها، حيث يقول: "إن الإسلام يملك اليوم إمكانيات واحتمالات انتشاره بأكثر مما كان في أوج عظمته" الإسلام والقرن 21، شروط نهضة المسلمين، ص119. ولكن غارودي يحدد مجموعة من الشروط يراها كفيلة بتحقيق الانبعاث الحضاري للإسلام من جديد، وتتعلق هذه الشروط بالأساس بتطبيق الشريعة الاسلامية، ولكن بعد فهمها فهما صحيحا، وهنا يعول غارودي كثيرا على الاجتهاد.

7. 1. الاجتهاد

إن الاجتهاد يعد، في نظر غارودي، الشرط الأساسي لنهضة المسلمين وانبعاث الإسلام الحضاري من جديد مثلما كان عليه الحال في أوج الحضارة الإسلامية، فالاجتهاد هو الذي صنع مجد الإسلام وحضارته، وهو ما يؤكده في قوله:"ولم تكن عبقرية فقهائنا الكبار، ولا سيما أبو حنيفة والشافعي تكمن على وجه الدقة في الاقتصار على تكرار حرفي للقرآن الكريم أو لتفسيرات القرآن، بل على العكس، في ألا يقرأ القرآن الكريم بعيون الموتى، ولكن بفكر نقدي وتاريخي، تستخلص منه المبادئ الأبدية التي تكون القواعد الأساسية لكل مجتمع إنساني، أي، إلهي (الشريعة)، أي محاولات لتطبيق هذه المبادئ على الأوضاع التاريخية الجديدة (أي الفقه)"(الإسلام، ص ص 12. 13)

إن الاجتهاد في نظر غارودي هو المنهج الذي يمكننا من حل مشكلات عصرنا، فهذه المشكلات لم تكن مطروحة على السلف، مثل مشكلات السلاح النووي، ومشكلات البيئة،وغيرهان ومن ثمة فلامناص لنا من فقه جديد خاص بهذه بواقعنا المعاصر، وفي ذلك يقول: "والطريق الوحيد الذي يستطيع الإسلام أن يأمل فيه، في مستقبل سليم هو طريق الاعتماد على المبادئ الخالدة، لإنشاء تشريع أو فقه للقرن العشرين والقرن الواحد والعشرين أيضا"(الإسلام، ص13)

ويقدم غارودي عدة أمثلة وشواهد على دور الاجتهاد وأهميته في الفكر الإسلامي، فإليه يرجع الفضل في نهضة المسلمين وازدهار الإسلام قديما وحديثا، يقول في ذلك: "لقد أقام الشيخ ابن باديس الدليل بالمثل الذي ضربه على أن العودة إلى مصدري التشريع والاقتداء بالسلف الصالح، لا يعني أنه يجب علينا أن نوغل في المستقبل بالرجوع القهقرى والتمسك بالماضي وحده. كلا وإنما يعني أن مبادئ القرآن والسنة النبوية التي تبين لنا كيفية تحقيق هذه المبادئ في حياة الإنسان تتيح لنا إمكانية إعطاء إجابة إسلامية على المسائل المستحدثة التي تطرحها التحولات التاريخية التي ليس لها نظير في عصرنا الحالي. وإذا قلنا إن التحولات ومشاكل عصرنا ليس لها نظير، مثل مشاكل النمو، والتخلف، ومشكلة إمكانية الانتحار النووي، أو الانتحارية إن صح التعبير على مستوى المعمورة، وقضايا الشركات المتعددة الجنسيات، وتوازن الرعب والإرهاب، ومشاكل الاستلاب الثقافي التي يطرحها النموذج الغربي، فهذا يعني أننا لا نستطيع إيجاد حل لأي منه عن طريق التقليد" ملتقى الاجتهاد، ص275 . 276.

يراهن غارودي إذن، على الاجتهاد كشرط أسس للتجديد الحضاري، فالاجتهاد، حسبه، هو البعد المفقود في الفكر الإسلامي الحديث وهو ما عطل جهود الإصلاح والنهضة وجعل الأمة الإسلامية تتخلف عن الركب الحضاري، رغم أن الإسلام يحث على الاجتهاد ويرفض التقليد، ومن ثمة، فإن مسؤولية الانحطاط والتخلف تقع على المسلمين وليس على الإسلام.

2.7. الفهم الصحيح للشريعة الإسلامية

إن الشريعة الإسلامية في نظر غارودي صالحة لكل زمان ومكان، غير أن سوء فهم الشريعة هو الذي عطل وظيفتها الحضارية، وفي هذا السياق يتساءل غارودي: "لماذا . في وقتنا الحالي . لا ترسل هذه الشريعة أشعتها عبر العالم بأسره؟ لماذا تبقى الشعوب المسلمة . رغم خلاصها من الاستعمار . موضوعا للدراسة بدلا من أن تكون فاعلة خلاقة للتاريخ؟ لماذا لا تكون الشعوب الإسلامية قدوة للمبادرة التاريخية؟" البديل هو الإسلام، ندوة الكويت، ص 131.

وفي إجابته عن هذا التساؤل يقول: "ذلك لأن هذه الشريعة قد أسيئ فهمها، وحد من تقدمها الحيوي منذ القرون الأولى. ذلك لأن القرآن يقرأ من خلال أعين الأموات، من خلال أعين أناس كانت عبقريتهم أنهم قاموا بحل مشكلات عصرهم، مستندين إلى البيان الخالد للقرآن. أما نحن فلانستطيع حل مشكلاتنا ببقائنا راضين مقتنعين بتكرار ما صاغوه، مع أنه يتوجب علينا أن نستوحي مناهجهم. والعودة إلى رأس النبع لا تعني أن نسير نحو المستقبل إلى الوراء، أن نمشي وأعيننا مصوبة نحو الماضي. بل يعني أن نجد، مرة أخرى، الينبوع الصالح الحي، والطاقة المبدعة للإسلام في فجره. والشريعة ليست بركة راكدة، يغرف المرء منها ماء آسنا. إن هذا الماء لن يطفئ أنواع العطش الحديثة. إن الشريعة نهر رائع الجمال، مرسل للنور، يضفي الخصب على ضفافه في أثناء جريانه" البديل هو الإسلام، ندوة الكويت، ص 131.

وانطلاقا من ذلك، يحاول غارودي تصحيح الأمور من خلال تقديم فهم صحيح للشريعة، فيقول: "وليست الشريعة مجموعة قوانين وحسب، بل هي طريقة حياة، وهي قانون ملزم كثير المطالب، مسيطر على كل وجوه الحياة الداخلية والخارجية" البديل هو الإسلام، ندوة الكويت، ص 132. إذا الشريعة لا يمكن أن تختزل في مجموعة من القوانين، مثل قوانين الميراث والعقوبات وغيرها، بل إنها منهج حياة شامل، وهي لا تتعلق بالسلوك الظاهر فقط بل إنها تشمل السلوك الباطن للفرد،أي، النوايا والضمائر، كما أن الشريعة ليست هي الفقه، فالشريعة هي قوانين الله الأبدية الخالدة، واما الفقه فهو اجتهاد بشري يمتاز بالنسبية والتغير.

وبعد أن حدد مفهوم الشريعة ينتقل غارودي إلى تحديد المقصود بتطبيق الشريعة، وهو الشعار الذي يرفعه الكثيرون ولكن بمعنى غير سليم، وهنا يقول غارودي: "إن تطبيق الشريعة يعني قبل كل شيء إقامة مجتمع . كما يأمرنا به القرآن . مجتمع لا تتكدس فيه الثروات (كأبي لهب) مع فقر الآخرين الذين لا تمد لهم يد العون على الشكل الذي يأمر به القرآن : " لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ..." [البقرة: 177] فلا يعني تطبيق الشريعة أن على الإنسان أن يبدأ بالعقاب قبل أن يوجد أسلوبا في التربية، ويقيم نظاما سياسيا يوحي للفرد وللجميع بالشعور بالكرامة جنبا إلى جنب مع الشعور بالواجب. وأن تطبق الشريعة، وأن يكون مسلما، يعني أن يعيش

المرء كل لحظة من لحظات حياته لا يمكن أن يخفي فيها عن الله سرا.وإنه من التعسف بمكان أن نطلق اسم شريعة القرآن على جزء واحد منه" البديل هو الإسلام، ندوة الكويت، ص 132.

آليات التغيير الحضاري عنده:

إن المطلوب من كل مسلم اليوم، في نظر غارودي، من أجل تحقيق التغيير الحضاري المنشود، هو "النضال مع كل المؤمنين الذين يعتقدون مثلنا أن للعالم معنى، وأن العالم واحد: ضد كل صور الاستعمار، وكل وحدانيات السوق التي تقسم العالم إلى قسمين: جنوب، وشمال، بل ويقسمون الشمال نفسه إلى "من يملكون ومن لا يملكون"، وضد هيمنة الولايات المتحدة، وأتباعها الأوروبيين، إن الأمر يتعلق بإعادة وحدة حقيقية للعالم، يناضل فيه المسلمون والمسيحيون والبوذيون، لكي يعطوا كل إنسان مهما يكن لونه، وأصله، ودينه، كل الوسائل التي تساعده على تفتيح كل الإمكانيات التي يحملها في داخله" (الإسلام، ص13)

. ويضيف: "ونحن لن ننتصر بالعنف، ولكن بالخنق الاقتصادي لهذا الجبار ذي الأرجل المصنوعة من الطين. وسلاحنا الأول، هو المقاطعة: ففي كل مرة نرفض فيها شحنة من الكوكاكولا، أو نقاطع السينما التي تعرض فيها الحياة البربرية في الأفلام الأمريكية، وفي كل مرة نرفض فيها دفع الضريبة لحكومات "المرتزقة"، التي تستخدم أموالنا لشراء أسلحة لن توجه إلا لصدور إخوتنا، وفي كل مرة نرفض فيها حاكما ظالما، في الداخل أو الخارج، نكون قد بدأنا معركة الله، من أجل وحدة البشر وعظمتهم" (الإسلام، ص15)

فهل يبدو غارودي من خلال هذه المقترحات مفكرا طوباويا من أصحاب الجمهوريات والمدن الفاضلة؟ أم مفكرا واقعا مدركا للواقع وسنن التغيير الاجتماعي والحضاري؟

خاتمة

من خلال ما سبق يتبين لنا بأن غارودي من دعاة التغيير الحضاري، بعد أن فقد الأمل في النموذج الحضاري الغربي، وهو يعول على الإسلام في تحقيق هذا التغيير بفضل ما يملكه من إمكانات حضارية شريطة أن يتجاوز المسلمون العوائق التي أدت إلى الانحطاط والتخلف، فالتجديد الحضاري ممكن في الإسلام لأن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، شريطة أن نفهم الشريعة فهما صحيحا كما كان الحال مع السلف الصالح الذين شيدوا حضارة لا مثيل لها في التاريخ.